محمد عبده (*1849 . 1905*م)

أ . نبذة عن حياته:

ولد الشيخ محمد عبده حسن خير الله في قرية ((محلة نصر)) بمركز ((شيراخيت)) من أعمال محافظة البحيرة في عام *1266*هـ (*1849*م)، بدأ تعليمه في سن السابعة من عمره القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وفي سنة *1279*هـ (*1862*م) التحق بجامع الأحمدي بطنطا ليحضر دروس تجويد القرآن الكريم. لكنه بعد استكمل تجويد القرآن، قرر هجران الدراسة لأساليب التدريس العميقة التي صدته عن قبول الدروس فعاد إلى القرية سنة *1282*هـ (*1865*م) وتزوج وعزم على العمل بالزراعة مع أبيه وأخواته والانقطاع عن سلك التعليم، ولكن والده رفض ذلك، وقرر إعادته إلى الجامع الأحمدي في نفس العام.

في هذه الفترة التقى بالشيخ درويش خضر خال والده وهو صوفي كان على اتصال بالزاوية السنوسية، فألقى إليه ببعض من حكمة التصوف، وقاده إلى شيء من سلوك الصوفية، فعادت إليه الرغبة في طلب العلم وعاد إلى جامع الأحمدي، وبدأ يفكر في الذهاب إلى القاهرة كي يلتحق بالجامع الأزهر، وهو ما تم له ذلك في شهر شوال *1282*هـ (فبراير *1866*م). وكان يومئذ في الأزهر مجموعتان: مجموعة ذات توجه شرعي محافظ، وثانية ذات توجه صوفي أقل محافظة من الشرعيين، فحضر محمد عبده للتوجهين، فسمع الشرعيين المحافظين دروس المشايخ " عليش" و"الرفاعي" و"الجيزاوي" و"الطرابلسي" و"البحراوي"، لكنه انتمى للصوفيين، وكان رائدهم الشيخ "خسن رضوان" صاحب منظومة ((روض القلوب المستطاب))، وكان ضمن هذا التوجه الصوفي أيضا الشيخ "حسن الطويل" والشيخ " محمد البسيوني".

وعندما زار جمال الدين الأفغاني مصر للمرة الثانية سنة *1288*هـ (*1871*م)، اتصل به محمد عبده ولازم مجلسه منذ شهر المحرم من ذلك العام، وودع حلقات الدروس الأزهرية العقيمة في نظره، فانتقل به الأفغاني من التصوف والتنسك إلى ((الفلسفة الصوفية))، وفي مجلسه كتب مقدمة ((الرسالة الواردات)) الفلسفية، التي أملاها الأفغاني سنة *1289*هـ (*1879*م)، وهذه المقدمة هي أول الأثار الفكرية التي حفظت لنا من تراثه، والتي لم تنشر إلا بعد وفاته. وفي سنة *1294*هـ(*1877*م) نال من الأزهر امتحان العالمية من الدرجة الثاني.

بعد ذلك عين محمد عبده مدرسا في دار العلوم، وألّف كتابا في علم الاجتماع والعمران (وهو مفقود) وأخذ يكتب في جريدة ((الأهرام)) منذ صدورها عام *1876*م، كما تولى التحرير في صحيفة ((الوقائع المصري))، فضم إلى هيئة التحرير سعد زغلول والشيخ سليمان وابراهيم الهلباوي.

في سنة *1882*م شارك في ثورة عرابي، فسجن ثلاثة أشهر، ونفي ثلاث سنوات قضى منها عاما في بيروت وانتقل إلى باريس بناء على دعوة أستاذه جمال الدين الأفغان، وفي باريس أصدرا مجلة

((العروة الوثقى)). ثم عاد إلى بيروت ثانية وأخذ يدرس في جوامعها، ويكتب في مجلة ((ثمرات الفنون)) البيروتية. وعاد إلى مصر بعد ست سنوات من المنفى عام *1888*م، وكانت بدعوة من صديقه رياض باشا الذي تولى الوزارة في عهد الخديوي توفيق، غير أن الوضع في مصر قد تغيّر، وأصبح الإنكليز هم المسيطرون على الحكم والإدارة. ولذلك انصرف محمد عبده إلى التجديد الديني وإصلاح المؤسسات الدينية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية. ولما توفي الخديوي توفيق عام *1892*م، وخلفه الخديوي عباس تقرّب منه محمد عبده بواسطة محمد ماهر باشا، فعينه الخدويوي في مجلس إدارة الأزهر وأوكل إليه تقديم تقرير عن الإصلاح المرجو في الأزهر. وفي عام *1899*م تولى الافتاء في مصر، وتوثقت صلاته باللورد كرومر، المندوب السامي البريطاني، واختير عضوا في مجلس شورى القوانين، ومجلس الأوقاف والجمعية الخيرية الإسلامية. وتوفي عام *1905*.

ب . أفكاره الإصلاحية والتعليمية:

كانت بداية تفكير الشيخ محمد عبده هو ذلك الانحلال الداخلي والحاجة إلى التجديد في الإسلام، ولم يكن يبحث عن الخلاص الفردي بل كان يسعي إلى إقامة المجتمع الصالح، فقد كانت تبدو له صورتان متباينتان للمجتمع الإسلامي: صورة قديمة جميلة تعود إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وصورة ثانية مهزوزة للمجتمع المعاصر، وكان عليه أن يوافق بين المجتمع الإسلامي الأفضل الذي كان يطمح إليه والمجتمع الذي كان يعيش فيه. وأدرك من جهة أخرى أن تطورات عديدة قد طرأت على المجتمع الإسلامي الحديث بما أدخل من قوانين وأنظمة وضعية، سواء كان ذلك في مصر أو في الدولة العثمانية، وأصبح في مصر نفسها نوعان من التعليم ونوعان من المعاهد: المعاهد الدينية التابعة للأزهر والتي تدّرس العلوم الدينية، والمعاهد الحكومية، على النمط الغربي، حيث تدّرس العلوم العصرية. ونتيجة لذلك ظهرت في مصر طبقتان من المثقفين هما: طبقة المثقفين ثقافة اسلامية تقليدية، التي ترفض كل تجديد، وطبقة المثقفين ثقافة غربية، ومعظمها من الجيل الجديد، لا ترفض التطور والتغيير بل ترحب بكل جديد في ميداني الفكر والعمل.

أما المجتمع المثالي الذي كان يريده محمد عبده هو مجتمع يسوده العقل لا القانون، ذلك أن المسلم الحق، في رأيه هو الذي يعتمد على العقل في شؤون الدنيا والدين، وما الكافر إلا ذلك يغمض عينييه فلا يرى نور الحقيقة، ولا يقبل اعتماد البراهين العقلية، والإسلام بخلاف ما زعم أعداؤه، فلم يكن يدعو إلى اهمال العقل، بل كان يحث على العلوم العقلية وغيرها من العلوم، فالمجتمع المثالي أو الصالح في اعتقاده هو الذي يقبل أوامر الله ويمتثل لها ويفسرها تفسيرا عقليا، وفقا للصالح العام. انه مجتمع الفضيلة والسعادة والرخاء.

من هذا التّصور الشامل نشأت دعوة محمد عبده في التجديد الديني معتمدا على الأسس التالية:

1 . تطهير الإسلام من البدع والضلالات والعودة به إلى نقائه الأول، في هذا الشأن يقول "محمد عبده": ((ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلّل من غلطه وضبطه، تتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني)).

لقد سار "محمد عبده" على خطة الدعوات الإصلاحية السلفية فأخذ بآراء ابن تيمية وتلميذه "ابن القيم" و"محمد بن عبد الوهاب" في العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، ولذلك اعتبر الاستعانة بالقبور والأولياء والصالحين ضربًا من الشرك، وأرجع تعظيم الأولياء وتقديسهم عند المسلمين إلى الأقوام التي غزت البلاد الإسلامية من ترك وديلم وغيرهم. حيث يقول في هذا: ((أنظروا إلي ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية، فاستعانوا من ذلك للإسلام ما هو براء منه، لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره، والغوغاء عون الغاشم وهو يد الظالم، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وتلك الاجتماعات، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة، وأركس الناس في الضلالة وقرروا المتأخر ليس له أن يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول)). وهامج التقليد والمقلدون بقوله أنه حسب ما أرشدنا إليه القرآن: ((فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملي، وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي بالباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعلو فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان)).

2 . إعادة النظر في عرض المذاهب الإسلامية على ضوء الفكر الحديث، أو التوفيق بين الدين والعلم: فهو يقول في الشأن: ((لا يجوز أن يقام الدين حاجزًا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان، بل يجب أن يكون الدين باعثًا لها على طلب العرفان، مطالبًا لها باحترام البرهان، فارضًا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد والوقوف على سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين)).

فقد عمد إلى استعمال العلوم الحديثة في تفسيره للآيات القرآنية وقال في هذا الإطار: ((على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الطب أو إضافة شيء إليه مما دليل في العلم لأجل تصحيح بعض الروايات الاحادية، فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارض العلم)). كما دعا إلى التوازن بين العلم والإيمان فقال: ((إلا أنه من واجب العقل أن يتواضع أمام الله وأن يتوقف

عند حدود الإيمان، أما ضمن هذه الحدود فليس هناك أي حاجز يعترضه ويعرقل نشاطه، أو أي يحد نظرياته التي يمكن أن تصدر وفقًا لهذه الأفكار)).

3 . الدفاع عن الإسلام ضد التأثيرات الغربية، وضد حملات المبشرين المسيحين خاصة: ففي هذا الشأن يقول: ((الشريعة الإسلامية عامة باقية إلى آخر الزمان، ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان، مهما تغيرت أساليب العمران، والشريعة هذا شأنها لا تنحصر جزائيات أحكامها، لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا، ولا يحيط بذلك علمًا إلا عالم الغيب والشهادة، وهو الذي جعل أساسها حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال. إذ مصالح البشر في كل آن مبنية على حفظ هذه الأشياء التي منها السعادة في المعاش والمعاد)).

4 . اصلاح التعليم العالي الإسلامي: بدأت فكرة اصلاح التعليم الديني في ذهن "محمد عبده" بداية مبكرة، فقد نشر عام *1876*م مقالة في جريدة الأهرام أكّد فيها أنه لا يكفي دراسة المؤلفات العربية والتقليدية في الشرع الإسلامي، التي تدافع عن العقيدة، بل يجب تلقى العلوم الحديثة وتاريخ الديانات في أوروبا لتفهّم أسباب التقدّم الغربي، كما تكوّنت لديه فكرة واضحة عن ضرورة اصلاح التعليم الديني في مصر وهو الذي عانى من سوء التعليم في الجامع الأحمدي بطنطا وعاش تجربة مرّة دامت اثنا عشرة سنة في الجامع الأزهر، الذي يقول عنه: ((إن اصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام فإن صلاحه اصلاح للمسلمين وفساده فساد لهم)).

وقد اتيح له أن يحقق بعض أفكاره الإصلاحية في التعليم في الأزهر في عهد الخديوي "توفيق" الذي كان وراء الإصلاح، ولم يوافق الشيخ في الإصلاح المطلوب، بسبب مقاومة شيوخ الأزهر لإدخال العلوم الحديثة، ولما تولى الخديوي "عباس" الحكم عهد إلى الشيخ بإعداد تقرير عن التعليم في الأزهر وطرق اصلاحه، وعلى اثر ذلك تألف (مجلس إدارة الجامع الأزهر) لتنظيم قواعد التدريس والأروقة والمرتبات ودرجات العلماء، وتألف المجلس من ستة أعضاء كان الشيخ "محمد عبده" أحدهم عام *1895*م، وكان الروح المحركة للمجلس، وأقد أثمرت جهوده في الإصلاحات التالية:

. تنظيم مرتبات الأساتذة في الأزهر وزيارتها.

. منح كساوي التشريف التي يلبسها العلماء لم يستحقها.

. تنظيم الجارايات التي تصرف للمجاورين في الأزهر.

. اصلاح مساكن المجاورين في اثاثها وايصال الماء إليها.

. اصلاح إدارة الأزهر بإيجاد مكاتب ادارية لمساعدة شيخ الأزهر.

. تأليف لجنة من ثلاثين عالمًا لدراسة المناهج المقررة في الأزهر(أدخلت مواد الحساب والجبر وتاريخ الإسلام والإنشاء وآداب اللغة العربية ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان إلى المناهج).

. اصلاح المكتبة لتسهيل استعمالها.

. اصلاح طريقة التدريس، وقد بدأ الشيخ بنفسه.

غير أن استجابة الأزهر لضرورة التجديد كانت بطيئة جدًا، كما كان يلاحظ الشيخ "محمد عبده" نفسه عنما أسر بذلك للشيخ "محمد رشيد رضا" قائلا: ((إن هذا الإصلاح لا يتم إلا في زمن طويل، وإنه إذا رأى حال الأزهر قد صلحت قبل موته فإنه يموت قرير العين)). هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن الأزهر كون مؤسسة علمية ذات تقاليد تعود إلى ثمانية قرون تعتبر نفسها، أمام العالم الإسلامي حارسة الدين والناطقة بالمذهب السّني في الإسلام، فهي لن تفتح أبوابها بسهولة لرياح التجديد والتغيير الآتية إليها من الغرب.

من جهة مقابلة؛ أن الشيخ "محمد عبده" اهتم بالتعليم الديني العالي وأهمل التعليم الابتدائي والثانوي في المدارس الدينية التابعة للأزهر، وتناسى مكافحة الأمية بل اعتقد أن إصلاح التعليم العالي سيؤدي إصلاح بقية مراحل التعليم الديني. ولاسيما أن التعليم الابتدائي والثانوي العصري في مصر وغيرها من الأقطار العربية، قد بدأ منفصلاً عن الأزهر والمدارس وسار في اتجاه آخر.

مهما قيل في دعوة الشيخين "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" في الإصلاح الديني فقد تأثر بهما عدد من المفكرين والعرب والمسلمين من الأجيال اللاحقة، فكان من أشهر تلاميذهما والمتأثرين بهما في مصر "محمد فريد وجدي" و"قاسم أمين" و"أحمد لطفي" والسيد "عبد العزيز جاويش"، وفي بلاد الشام الشيخ "الطاهر الجزائري"، والشيخ "حسين الجسر" و"عبد القادر المغربي" و"محمد كرد علي" و"جمال الدين قاسمي" و"عبد القادر البيطار" و"عبد الحميد الزهراوي" و"محمد زاهد الكوثري" و"عبد القادر الترنانيني" و"محمد رشيد رضا" والأمير "شكيب أرسلان". وسار على نهجهما في شمال افريقيا "محمد بيرم" التونسي أحد أتباع المصلح السياسي والاجتماعي المشهور "خير الدين" التونسي ومؤلف عدة كتب في إصلاح القضاء، والشيخ "محمد النخلي" والشيخ "الطاهر بن عاشور" والشيخ "سالم بوحاجب" المدرسين في جامع الزيتونة والشيخ "محمد بن الخوجة.

مصادر ومراجع الموضوع:

- **آثار ابن باديس**، إ. ت: عمار طالبي، ط *3*، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر بوراوو، الجزائر، *1997*، م*2* ج*2*.

. أنور الجندي، **اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار (منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)**، دار العلوم للطباعة، القاهرة، *1978*.

. عباس محمود العقاد، **عبد الرحمن الكواكبي (الرحالة ك)**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، *1986*.

– عبد المتعال الصّعيدي، **المجدِّدون في الإسلام من القرن الأول إلى لقرن الرابع عشر (*100 . 1370*هـ)**، مكتبة الآداب، القاهرة.

. علي المحافظة، **الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1897 . 1914**، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، 1987.

. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، مؤسسة الرسالة، ج*1*.

. محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، ط*2*، دار الفضيلة، للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، *2003*، ج *1*، ق*1*، ص: *11*.

. محمد عبده، **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**، ط *3*، دار الحداثة، بيروت، *1988*.

باتنة، الجزائر، 1982.

. محمد عبده، **رسالة التوحيد**، تقديم: محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، *1994*.

. محمد عمارة، **المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده**، مكتبة الإسكندرية، مصر، *2005*.